إحقاق الحق

بإبطال الباطل في مغيث الخلق

ومعه

أقوم المسالك

في بحث رواية مالك عن أبي حنيفة

ورواية أبي حنيفة عن مالك

تأليف

محمد زاهد بن الحسن الكوثري

عفا الله عنهما

الطبعة الأولى : سنة ١٣٦٠ هـ
الطبعة الثانية : ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م
حقوق الطبع محفوظة

الإمام الكوثري

بقلم الأستاذ الكبير الشيخ محمد أبو زهرة

وكيل كلية الحقوق وأستاذ الشريعة بجامعة القاهرة

١ ـ منذ أكثر من عام فَقَد الإسلامُ إماماً من أئمة المسلمين الذين عَلَوا بأنفسهم عن سَفْسَافِ هذه الحياة ، واتجهوا إلى العلم اتجاهَ المؤمن لعبادة ربه ، ذلك بأنه علمَ أن العلم عبادةٌ من العبادات يَطلُبُ العالمُ به رضا اللهِ لا رضا أحَدٍ سواه ، لا يَبْغِي به عُلُوّاً في الأرض ولا فساداً ، ولا استطالةً بفضلِ جاه ، ولا يُريدُه عَرَضاً من أعراض الدنيا ، إنما يَبغِي به نُصرةَ الحق لإرضاء الحق جل جلاله . ذلكم هو الإمامُ الكوثري ، طيَّب الله ثراه ، ورَضِيَ عنه وأرضاه .

لا أعرفُ أنَّ عالماً مات فخَلاَ مكانُه في هذه السنين ، كما خلا مكانُ الإمام الكوثري ، لأنه بَقِيَّةُ السلفِ الصالح الذين لم يجعلوا العلمَ مُرتَزَقاً ولا سُلَّماً لغاية ، بل كان هو منتَهَى الغاياتِ عندهم ، وأسمَى مَطارح أنظارِهم ، فليس وراءَ علم الدين غايةٌ يتغيَّاها مؤمن ، ولا مُرْتَقى يَصِلُ إليه عالم .

لقَد كانَ رَضِيَ الله عنه عالماً يتحقَّقُ فيه القولُ المأثورُ « العلماءُ وَرَثَةُ الأنبياء » وما كان يَرى تلك الوِراثةَ شَرَفاً فقط ، لِيَفتَخِرَ به ويَستطِيلَ على الناس ، إنما كان يَرى تلك الوراثة جهاداً في إعلان الإسلامِ وبيانِ حقائقه، وإزالة الأوهام التي تَلحَقُ جوهَرَه، فيُبدِيه للناس صافياً مُشْرِقاً منيراً، فيَعشُوا الناسُ إلى نُورِه ، ويهتدون بهديه ، وأنَّ تلك الوِرائَةَ تتقاضَى العالَمَ أن يُجاهِدَ كما جاهد النبيون ، ويصبر على البأساءِ والضراء كَما صَبَرُوا ، وأن يَلْقَى العَنَتَ ممن يدعوهم إلى الحق والهداية كما لقُوا ، فليستْ تلك الوراثةُ شرفاً إلا لمن أخَذَ في أسبابها ، وقام بحقها ، وعرف الواجبَ فيها ، وكذلك

كان الإمامُ الكوثري رَضِيَ الله عنه .

٢ ـ إنَّ ذلك الإمامَ الجليل لم يكن من المنتحلين لمذهبٍ جديد ، ولا من الدعاةِ إلى أمرٍ بَدِيءٍ لم يُسْبَق به ، ولم يكن من الذين يَسِمُهم الناسُ اليومَ بسِمَةِ التجديد ، بل كان يَنفِرُ منهم ، فإنه كان مُتَّبِعاً ، ولم يكن مُبْتَدِعاً ، ولكني مع ذلك أقول : إنه كان من المجدِّدين بالمعنى الحقيقي لكلمةِ التجديد ، لأن التجديد ليس هو ما تعارَفَهُ الناسُ اليوم من خَلْع للرِّبْقَةِ ورَدٍّ لعهدِ النبوَّةِ الأولى ، إنما التجديد هو أن يُعادَ إلى الدين رَونَقُه ، ويُزالَ عنه ما عَلِق به من أوهام ، ويُبينَ للناسِ صافياً كجوهرِه ، نَقيّاً كأصلِه ، وإنه لمن التجديد أن تَحيا السُّنَّةُ ، وتَمُوتَ البدعَةُ ، ويقومَ بين الناس عَمُودُ الدين .

ذلك هو التجديدُ حقاً وصدقاً ، ولقد قام الإمامُ الكوثري بإحياء السنة النبوية ، فكَشَفَ عن المخبوء بين ثنَايا التاريخ من كُتُبها ، وبيَّنَ مناهجَ رُواتِها ، وأعلَنَ للناس في رَسَائِلَ دَوَّنها وكُتُبٍ أَلَّفها سُنَّةَ النبي ﷺ ، من أقوالٍ وأفعالٍ وتقريرات ، ثم عَكَف على جهودِ العلماء السابقين الذين قاموا بالسنة ورَعَوْها حَقَّ رعايتها ، فنشر كتبهم التي دُوِّنَتْ فيها أعمالُهم لإحياء السنة ، والدِّينُ قد أُشْرِبَتْ النفوسُ حُبَّهُ ، والقلوبُ لم تُرنَّقْ بفسادٍ ، والعلماءُ لم تَشغلهم الدنيا عن الآخرة ، ولم يكونوا في رِكابِ الملوك .

٣ ـ لقد كانَ الإمامُ الكوثري عالماً حقاً عَرَف علمه العلماءُ ، وقليلٌ منهم من أدرَك جهادَه ، ولقد عَرَفتُهُ سنينَ قبلَ أن ألقاه ، عَرَفتُهُ في كتاباتِه التي يُشرِقُ فيها نُورُ الحق ، وعَرَفتُهُ في تعليقاتِه على المخطوطاتِ التي قام على نشرها ، وما كان والله عَجَبي من المخطوط بقَدْرِ إعجابي بتعليقٍ من عَلَّقَ عليه ، لقد كان المخطوط أحياناً رسالةً صغيرة .

ولكن تعليقاتُ الإمام عليه تجعلُ منه كتاباً مقروءاً وإنَّ الاستيعابَ والاطِّلاعَ واتساعَ الأفق ، تَظهَرُ في التعليق بادية العِيَان ، وكلُّ ذلك مع طَلاَوةِ عبارة ، ولُطفِ إشارة ، وقُوةِ نقد ، وإصابةٍ للهدف ، واستيلاءٍ على التفكير والتعبير ، ولا يمكنُ أن يجولَ بخاطر القارىء أنه كاتبٌ أعجمي وليس بعربي مُبِين .

ولقد كان لفَرطِ تواضُعِه لا يَكتُبُ مع عنوان الكتابِ عَمَلَه الرسميَّ الذي كان يتولاه في حكم آل عثمان ، لأنه ما كان يَرى رَضِيَ الله عنه أنَّ شَرَفَ العالِمِ يَنالُه مِن عَمَلِهِ الرسمي وإنما ينالُهُ من عملِهِ العِلْمي ، فكان بعضُ القارئين ـ لسلامةِ المبنى مع دقة المعنى ولإشراقِ الديباجةِ وجزالةِ الأسلوب ـ لايجولُ بخاطره أنَّ الكاتبَ تُركي بل يَعتقدُ أنه عربي ، وُلِدَ عربياً ، وعاش عربياً ، ولم تُظِلَّهُ إلا بيئةٌ عربية .

ولكن لا عجَبَ فإنه كان تركياً في سُلالتِهِ ، وفي نشأته ، وفي حياتِهِ الإنسانيةِ في المدة التي عاشها في الآستانة ، أما حياتُه العلمية فقد كانت عربيةً خالصة ، فما كان يقرأ إلا عربياً ، وما ملأ رأسَهُ المُشْرِقَ إلا النورُ العربيُّ المحمديُّ ، ولذلك كان لا يكتُبُ إلا كتابةً نقيةً خاليةً من كل الأساليب الدخيلة في المنهاج العربي ، بل كان يَختارُ الفصيحَ من الاستعمال الذي لم يَجرِ خلافٌ حولَ فصاحته ، مما يَدلُّ على عِظَمِ اطِّلاعِهِ على كتب اللغة متناً ونحواً وبلاغةً ، ثم هو فوقَ ذلك يَقْرِضُ الشعرَ العربي ، فيكونُ منه الحَسَنُ .

٤ ـ لقد اختُصَّ رَضِيَ الله عنه بمزايا رَفَعته وجعَلَتهُ قُدوةً للعالِمِ المسلم . لقد علا بالعلم عن سُوق الاتجار ، وأعلَمَ الخافقين أنَّ العالِمَ المسلم وطنهُ أرضُ الإسلام ، وأنه لا يرضَى بالدَّنيَّة في دِينِه ، ولا يأخذُ من يُذِلُّ الإسلامَ بهَوَادَة ، ولا يَجعلُ لغير الله والحقِّ عنده إرادة ، وأنه لا يَصِحُّ أن يعيشَ

في أرض لا يستطيع فيها أن يَنطِق بالحق ، لا يُعلِيَ فيها كلمةَ الإسلامْ ، وإن كانت بلَدهُ الذي نشأ فيه ، وشَدَا وترعرَعَ في مَغَانِيه ، فإنَّ العالِمَ يَحيا بالروح لا بالمادة ، وبالحقائقِ الخالدةِ ، لا بالأعراضِ الزائلة . وحَسْبُهُ أن يكون وجيهاً عند الله وفي الآخرة ، وأما جاهُ الدنيا وأهلِها فظِلٌ زائل ، وعَرَضٌ حائل .

٥ ـ وإنَّ نظرةً عابرةً لحياةِ ذلك العالم الجليل تُرينا أنه كان العالِمَ المخلص المجاهِدَ الصابرَ على البأساء والضرَّاء ، وتنقُّله في البلادِ الإسلامية والبلاءُ بلاء ، ونشرِهِ النورَ والمعرفةَ حيثما حَلَّ وأقام . ولقد طَوَّفَ في الأقاليم الإسلامية ، فكان له في كل بلد حَلَّ فيه تلاميذٌ نَهَلُوا من منهلِه العذب ، وأشرقَتْ في نفوسهم رَوحُه المخلصة المؤمنة ، يُقدِّمُ العلم صَفْواً لا يُرنِّقه مِراء ولا التواء ، يَمضِي في قولِ الحق قُدُماً لا يَهمُّه رَضِيَ الناس أو سَخِطوا مادام الذي بينه وبين الله عامراً .

ويظهرُ أن ذلك كان في دمِهِ الذي يَجري في عُرُوقِه ، فهو في الجهادِ في الحقِّ منذ نشأ ، وإنَّ في أسرته لَتَقْوى وقُوَّةَ نفسٍ وصبرٍ واحتمالٍ للجهاد ، إنه من أُسرة كانت في القُوقاز ، حيث المَنَعةُ والقُوَّةُ وجمالُ الجسمِ والروحِ ، وسلامةُ الفِكر وعُمقُه .

ولقد انتقل أبوه إلى الآستانة فُولِدَ على الهُدَى والحق ، فدَرَس العلومَ الدينيةَ حتى نال أعلى درجاتِها في نحو الثامنةِ والعشرين من عمره ، ثم تدرَّجَ في سُلَّم التدريس حتى وَصَل إلى أقصى درجاته وهو في سن صغيرة ، حتى إذا ابتُلي بالذين يُريدون فَصْلَ الدنيا عن الدين ، لتحْكُمَ الدنيا بغير ما أنزَل الله ، وَقَفَ لهم بالمرصاد ، والعُودُ أخضَرُ ، والآمال متفتحة ، ومَطامحُ الشباب متحفِّزة ، ولكنه آثَرَ دِينَه على دنياهم وآثَرَ أن يُدافِعَ عن البقايا الإسلامية على أن يكون في عيشٍ ناعم ، بل آثرَ أن يكون في نَصَبٍ

دائم فيه رضَا الله ، على أن يكون في عيش رافهٍ وفيه رِضَا الناسِ ورِضَا من بيدِهم شئونُ الدنيا ، لأن إرضاءَ الله غايةُ الإيمان .

٦ ـ جاهَدَ الاتحاديين الذين كان بيدهم أمرُ الدولة ، لما أرادوا أن يُضيِّقُوا مَدَى الدراسات الدينية ويُقصِّروا زمنَها ، وقد رأى رَضِيَ الله عنه في ذلك التقصيرِ نقصاً لأطرافها ، فأعملَ الحِيلةَ ودبَّر وقدَّر ، حتى قضَى على رغبتهم ، وأطال المدةَ التي رغبوا في تقصيرها ، ليتمكن طالبُ علوم الإسلام من الاستيعاب وهَضْمِ العلوم ، وخصوصاً بالنسبةِ لأعجميٍّ يتعلَّمُ بلسانٍ عربيٍّ مُبين .

٧ ـ وهو في كل أحوالهِ العالِمُ النَّزِهُ الأَنِفُ ، الذي لا يَعتمِدُ على ذي جاه في ارتفاع ولا يتملَّقُ ذا جاه لنيل مطلب أو الوصول إلى غايةٍ مهما شَرُفَتْ ، فإنه رضِي الله عنه كان يَرى أن معاليَ الأمور لا يُوصَّلُ إليها إلا طريقٌ سليم ومِنهاجٌ مستقيم ، ولا يُمكنُ أن يصِلَ كريمٌ إلى غايةٍ كريمة إلا من طريق يصُونُ النفس فيها عنَ الهَوَان ، فإنه لا يُوصلُ إلى شريفٍ إلا شريفٌ مِثلُه ، ولا شَرَف في الاعتماد على ذوي الجاه في الدنيا ، فإنَّ من يعتمدُ عليهم لا يكون عند الله وجيهاً .

٨ ـ سَعَى رَضِيَ الله عنه بجِدِّهِ وعَمَلِه في طريق المعالي حتى صار وكيلَ مشيخةِ الإسلام في تركيا ، وهو ممن يعرِفُ للمنصب حقَّه ، لذلك لم يُفرط في مصلحةِ إرضاءً لذي جاهٍ مهما يكن قوياً مسيطراً ، وقَبلَ أن يُعزَلَ من منصبِهِ في سبيلِ الاستمساكِ بالمصلحة . والاعتزالُ في سبيلِ الحقِّ خيرٌ من الامتثالِ للباطل .

٩ ـ عُزِلَ الشيخُ عن وكالة المشيخة الإسلامية ، ولكنه بَقِيَ في مجلس وكالتها الذي كان رئيساً له ، وما كان يَرى غَضّاً لمقامِهِ أن ينزل من الرياسة إلى العضوية ما دام سبَبُ النزول رفيعاً ، إنه العُلوُّ النفسيُّ لا يَمنعُ

العاملَ من أن يَعمَل رئيساً أو مرؤوساً ، فـالعِزَّةُ تُستَمَدُّ من الحق في ذاتـه ، ويُباركها الحقُّ جل جلاله .

١٠ ـ ولكنَّ العـالم الأَبي العَفَّ التَّقِيَّ يُمتحَنُ أشـدَّ امتحـان ، إذ يَرى بلدَهُ العزيزَ وهو دار الإسلام الكبرى ، ومَناطَ عِزَّته ، ومَحطَّ آمال المسلمين يَسُودُهُ الإلحاد ، ثم يُسيطِرُ عليه من لا يرجو لهذا الدينِ وقاراً ، ثم يُصبِحُ فيـه القـابض على دينـه كالقـابضِ على الجَمْر ، ثم يَجِدُ هـو نَفْسَـهُ مقصـوداً بالأذَى ، وأنه إن لم يَنْجُ أُلقي في غَيـابـاتِ السجن ، وحِيلَ بينـه وبين العِلم والتعليم .

عندئذ يَجدُ الإمامُ نفسَه بين أمور ثلاثة : إما أن يَبقَى مأسوراً مقيَّداً ، ينَطفىءُ ، علمـهُ في غيـابـاتِ السجون ، وإنَّ ذلـك لعزيـزٌ على عـالم تَعـوَّد الدرسَ والإرشادَ ، وإخراجَ كنوزِ الدِّين ليُعلِّمها الناس عن بيِّنة ، وإمـا أن يتملَّقَ ويُداهِنَ ويُمالِيء ، ودون ذلـك خَرْطُ القَتَـاد بل حَزُّ الأعنـاق ، وإمـا أن يُهـاجِر وبـلادُ الله واسعـة ، وتـذكَّرَ قـولَـه تعـالى ﴿ **ألم تكُنْ أرضُ اللهِ واسعةً فتُهاجِرُوا فيها** ﴾ .

١١ ـ هاجَرَ إلى مصر ثم انتَقلَ إلى الشام ، ثم عاد إلى القـاهرة ، ثم رجع إلى دمشق مرةً ثـانيـة ، ثم ألقَى عصـا التسيـار نهـائيـاً بـالقـاهرة ، وهـو في رحلاته إلى الشام ومُقـامِـهِ في القـاهرة كان نُوراً ، وكان مَسكَنُـهُ الـذي كان يَسكنُهُ ضؤُلَ أو اتَّسعَ مَدرَسَةً يَـأوِي إليهـا طلابُ العلم الحقيقي ، لا طلابُ العلم المَدْرَسِي ، فَيَهتدِي أولئك التلاميذُ إلى ينابيع المعرفـة ، من الكُتُب التي كُتِبَتْ ، وسُوقُ العلوم الإسلامية رائجةٌ ، ونفوسُ العلمـاء عـامرةٌ بـالإسلام ، فرَدَّ عقولَ أولئـك البـاحثين إليهـا ووجَّهَهم نحوَهـا ، وهو يُفسِّرُ المُغْلَقَ لهم ، ويَفِيضُ بغزير علمِهِ وثمارِ فِكرِه .

١٢ ـ وإنَّ كاتبَ هذه السطور لم يَلْقَ الشيخ إلا قبل وفاتِه بنحو عامين ، وقَد كانَ اللقاءُ الرُّوحيُّ من قَبْلِ ذلك بسنين ، عندما كنتُ أقرأُ كتاباتِه ، وأقرأُ تعليقَه على ما يُخرِجُ من مخطوط ، وأقرأ ما أَلِفَ من كتب ، وما كنتُ أحسَبُ أنَّ لي في نفسِ ذلك العالم الجليل مِثلَ مالَهُ في نفسي ، حتى قرأتُ كتابه ، « حُسْنُ التقاضي في سيرة الإمام أبي يوسف القاضي » ، فوجدتُه رَضِيَ الله عنه خَصَّني عند الكلام في الحِيَلِ المنسوبةِ لأبي يوسف بكلمةِ خير . وأشهَدُ أني سمعتُ ثناءً من كُبَراءَ وعُلَماء ، فما اعتززتُ بثناءٍ كما اعتززت بثناء ذلك الشيخ الجليل ، لأنه وسامٌ عِلْميٌّ ممن يَملكُ إعطاءَ الوسامِ العِلميّ .

سَعيتُ إليه لألقاه ، ولكني كنتُ أجهَلُ مُقامَهُ ، وإني لأسيرُ في مَيْدانِ العَتَبةِ الخضراء ، فوجدتُ شيخاً وجيهاً وقوراً ، الشيبُ ينبثقُ منه كنُورِ الحق ، يَلْبَسُ لباسَ علماء التُّرك ، قد التفَّ حولَهُ طلبةٌ من سُوْريَة ، فَوقَع في نفسي أنه الشيخُ الذي أسعَى إليه . فما إن زايَلَ تلاميذهُ حتى استفسرتُ من أحدِهم : من الشيخ ؟ فقال إنه الشيخُ الكوثري ، فأسرعتُ حتى التقيتُ به لأعرِفَ مُقامَه ، فقدَّمتُ إليه نفسي ، فوجدتُ عنده من الرغبة في اللقاء مِثلَ ما عندي ، ثم زرته فعلِمتُ أنه فوقَ كُتُبِه ، وفَوْقَ بُحوثِه ، وأنه كَنْزٌ في مِصر .

١٣ ـ وهنا أريد أن أُبدِيَ صفحة من تاريخ ذلك الشيخ الإمام ، لم يعرفها إلا عددٌ قليل :

لقد أردتُ أن يَعُمَّ نفعُه ، وأن يتمكَّن طلابُ العلم من أن يردوا وِرْدَهُ العذب ، وينتفعوا من مَنْهلِهِ الغزير ، لقد اقتَرح قسمُ الشريعة على مجلس كلية الحقوق بجامعة القاهرة : أن يُندَبَ الشيخُ الجليل للتدريس في دبلوم الشريعة، من أقسام الدراسات العليا بالكلية، ووافَقَ المجلسُ على الاقتراح بعد

أن عَلِمَ الأعضاءُ الأجلاءُ مكانَ الشيخ من علوم الإسلام وأعماله العلمية الكبيرة.

وذهبتُ إلى الشيخ مع الأستاذ رئيس قسم الشريعة إبَّان ذاك ، ولكننا فوجئنا باعتذار الشيخ عن القبول بمَرَضِهِ ومَرَضِ زوجه ، وضَعْفِ بصره ، ثم يُصرُّ على الاعتذار ، وكلَّما ألححنا في الرجاءِ لَجَّ في الاعتذار ، حتى إذا لم نجد جَدْوَى رجوناه في أن يُعاوِدَ التفكيرَ في هذه المُعاونةِ العلمية التي نَرْقُبُها ونتمنَّاها ، ثم عُدتُ إليه منفرداً مرةً أخرى ، أكرِّرُ الرجاءَ وألحفُ فيه ، ولكنه في هذه المرةِ كان معي صريحاً ، قال الشيخ الكريم ... إنَّ هذا مكانُ علم حقاً ، ولا أريدُ أن أُدرِّسَ فيه إلا وأنا قَوِيٌّ أُلقي دُروسِي على الوجهِ الذي أُحِبُّ ، وإنَّ شيخوختي وضَعْفَ صحتي وصِحَّةِ زَوْجِي ، وهي الوحيدةُ في هذه الحياة ، كلٌّ هذا لا يُمكِّنُني من أداء هذا الواجبِ على الوجهِ الذي أرضاه .

١٤ ـ خَرجتُ من مجلس الشيخ وأنا أقولُ أيُّ نَفْسٍ عُلْوِيَّةٍ كانت تُسْجَنُ في ذلك الجسم الإنساني ، إنها نَفْسُ الكوثري .

وإنَّ ذلك الرجلَ الكريم الذي ابتُلِيَ بالشدائد ، فانتَصر عليها ، ابتُلِيَ بفقدِ الأحبة ، فَفَقدَ أولادَه في حياته ، وقد اخترمَهُم الموتُ واحداً بعدَ الآخر ، ومع كل فقدٍ لَوْعة ، ومع كل لوعةٍ نُدوبٌ في النفسِ وأحزانٌ في القلب . وقد استطاع بالعلم أن يَصبرَ وهو يقولُ مقالَةَ يعقوب « فصَبْرٌ جميلٌ والله المُستَعانُ » ولكنَّ شريكتَه في السَّراء والضراء ، أو شريكتَهُ في بأساء هذه الحياة بعدَ توالي النكبات ، كانت تُحاولُ الصبرَ فتَتَصبَّرُ ، فكان لها مُواسياً ، ولكُلُومها مُداوياً ، وهو هو نفسُه في حاجة إلى دَوَاء .

ولقد مَضَى إلى ربه صابراً شاكراً حامداً ، كما يَمضي الصِّدِّيقُون الأبرار فرضيَ الله عنه وأرضاه .

محمد أبو زهرة

إحقاق الحق

بإبطال الباطل في مغيث الخلق

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد الله الذي يحق الحق بباهر كلماته وإن كره المجرمون ، ويبطل الباطل بقاهر آياته مهما شاغب المبطلون . والصلاة والسلام على سيدنا محمد الأمين المأمون المبعوث في خير القرون ، وعلى آله وأصحابه ما تعاقبت السنون . وبعد .

فهذه رسالة سميتها « إحقاق الحق بإبطال الباطل في مغيث الخلق » أَرُدُّ بها على كُتَيْب يُعْزَى إلى أبي المعالي عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجويني ، ويسمى « مغيث الخلق في ترجيح القول الحق » ، كان مثار فتن في منتصف القرن الخامس في خراسان وماوالاها ، إلى أن اضطر مؤلفه إلى مغادرة تلك الجهات لينجو بنفسه من عاقبة مازرعه من الفتن في بلاد آمنة مطمئنة ، حتى أقام مدة طويلة في الحرمين الشريفين ، يؤم مدة في الحرم المكي ، ومدة في الحرم المدني ، فلقب بإمام الحرمين ، ثم عاد إلى بلده بعد أن عادت المياه إلى مجاريها ، فأصبح أهدأ بكثير مما تقدم ، وربما ندم على ما قدم ، كما يستفاد مما ألفه من الكتب فيما بعد .

لكن لم يخل تلميذه الخاص أبو حامد الغزالي من التأثر من منهج شيخه في مبدأ أمره ، فأساء إلى نفسه في مقتبل عمره [١] ؛ حيث دون في هذا الصدد ما هو سبة دهره . وكان الفخر الرازي ثالثة الأثافي فيما ألف باسم « مناقب الإمام الشافعي » رضي الله عنه ؛ حيث ضمنه من الأباطيل ما يزيد في الطين بلة ، بل سعى في نقل بلد بأسره من مذهب إلى مذهب

---

(١) وكان ذلك في عهد شبابه ، ولقي جزاء عمله هذا حيث اتهمه أهل مذهبه بالزندقة ، فكاد أن يقتل لولا سعي بعض الحنفية عند الأمير سنجر السلجوقي ـ والي خراسان بعد عهد والده ملكشاه ـ في تخليصه ، كما ذكره شمس الأئمة الكردي . ثم تاب وأناب وحسن رأيه في أبي حنفية عند تأليفه الإحياء . عفا الله عما سلف .

بتأليفه « الطريقة البهائية »[١] باللغة الفارسية .

وقد رد الأصحاب على كل تلك الكتب بحيث لاتقوم لها قائمة بعد تلك الردود ، وإن قاست الأمة عواقب ذلك التخاذل والتصاول .

والإمام الشافعي رضي الله عنه ، قد تبوأ من قلوب الأمة مكانه الجدير به منذ قديم، حيث تقاسم هو وباقي الأئمة الأئمةَ المحمدية مدى القرون حتى أصبح ثالث الأئمة المتبوعين رضي الله عنهم أجمعين. وله من المناقب الجليلة مالا يحوج إلى اختلاق أكاذيب في رفع منزلته ، فإمام الحرمين والغزالي والرازي لا يتعمدون الكذب فيما يكتبون ـ فيما أرى ـ ، لكن مَنْ جهل أدلة الأحكام في المسائل الخلافية ، وبَعُدَ عن معرفة الحديث والتاريخ ، وما إلى ذلك من العلوم التي لابد من معرفتها لمن يريد السباق في هذا الميدان ، إذا خاض في مثل هذا المطلب تعويلاً على يده في النظر فقط ، هاج وماج ظناً بالأخبار الكاذبة أنها صادقة ، وفضح نفسه بسَوْقه الأكاذيب والتقاطه الساقطات ، فيهوي في هوة الجهل والخذلان ، فيصدق فيه المثل « على نفسها جنت براقش » .

ولست أسلك فيما أكتب من الرد على ابن الجويني مسلك العلامة نوح القونوي في كتابه « الكلمات الشريفة في تنزيه أبي حنيفة عن الترهات السخيفة » من التلطف البالغ في الرد على الكتاب المذكور ، وإنكار نسبة الكتاب إلى إمام الحرمين بعد أن شغل مكانه من التاريخ على تعاقب القرون ، ولا أنتحي منتحى العلامة على القاري في كتابه « تشييع الفقهاء لتشنيع السفهاء » من القسوة المتناهية مع تصحيح نسبة الكتاب إليه ، بل

---

(١) شاع استعمال الطريقة في كتب الجدل عند الأقدمين ، فيقال الطريقة العميدية والطريقة الرضوية ، والطريقة الحصيرية ، والطريقة البهائية ، فتنسب إلى مؤلفها ، أو إلى من أُلفت له ، كالأمير بهاء الدين هنا . وهي التي يسميها بعضهم بالبراهين البهائية .

أسلك فيما أكتب إن شاء الله تعالى منهجاً وسطاً بين التلطف والقسوة على قدر ما يستوجبه الكلام الذي أرد عليه من جهة بعده عن الحق وقربه منه . كائلاً له بكيله في غير ضعف ولا عنف . ولولا أن الكتاب طبعت منه آلاف ووزعت في المدن والأرياف مع إعادة طبع كتاب الرازي لجاز إهماله حتى مع استمرار اطلاع الجمهور على صلاة تُعْزَى إلى القفال المروزي في ترجمة يمين الدولة محمود بن سبكتكين في وفيات الأعيان المتداولة بأيدي الجمهور ، لكن السكوت على تعاقب مسعى الفاتنين يكون جريمة لا تغتفر .

فأكتب بتوفيق الله سبحانه ما يعيد الحق إلى نصابه ، وأكتفي فيما أكتب بالكلام في الجليات التي هي أقرب إلى فضح دخيلة المؤلف ، والكشف عن مبلغ جهله فيما يعانيه . وأما المسائل الخلافية الفرعية التي يتكلم هو عنها ، فإنما يتكلم عنها بمعيار عقله وميزان رأيه بدون أن يتعرض لأدلتها الشرعية من الكتاب والسنة ومدارك الفقهاء ، فإذا سلكت طريق الرد عليه في ذلك كله طال الكلام بدون حاجة ، على أن شمس الأئمة الكردي لم يدع قولاً لقائل في تلك المسائل في كتابه المسمى « الرد على الطاعن المعثار والانتصار لسيد فقهاء الأمصار »[1] حيث رد على نخالة « المنخول » لأبي حامد أجلى رد ، وفي ضمنه مسائل مغيث الخلق ، فلا داعي إلى نقل ما فيه مما يتمحض للرد على صاحب المغيث .

وكذلك فعل الإمام البارع قاضي القضاة وشارح الهداية ومؤلف زبدة الأحكام في اختلاف الأئمة الأعلام سراج الدين عمر بن إسحاق الغزنوي المتوفى بمصر سنة (٧٧٣ هـ) حيث وفّي الرد حقه في كتابه « العزة المنيفة في ترجيح مذهب أبي حنيفة »[2] الذي ترجم به « الطريقة البهائية »

---

(١) منه نسخ في دار الكتب المصرية .

(٢) بمكتبة شيخ الإسلام في المدينة المنورة .

للرازي ، ورد على مسائلها بأدلة ناهضة ترجع الحق إلى نصابه . وهو مما يجب الاطلاع عليه لمن يعنى بهذه المباحث لسعة دائرة بحث مؤلفه المعروف ببالغ الذكاء ، بل في الكتب المبسوطة في المذهب ما يغنيٌ عن تعقب مسائله خطوة فخطوة ، فأكتفى بما يكفي في هتك الستر عن مسعى المؤلف .

ومؤلف الكتاب على جلالة قدره بين الشافعية وكثرة مؤلفاته في الفقه وأصوله لا خبرة له بالحديث مطلقاً ، حتى تراه يقول في « البرهان » أن حديث معاذ في اجتهاد الرأي مخرج في الصحاح وهذا خلاف الواقع ، لأنه لم يخرج في أحد من الصحاح ، وإن كان الحديث صحيحاً عند الفقهاء على الطريقة التي شرحتها فيما علقت على « النبذ » لابن حزم .

ثم هو لم يذكر في « نهايةالمطلب في دراية المذهب » التي هي أضخم مؤلفاته حديثاً واحداً ينسبه إلى البخاري إلا حديث الجهر بالبسملة ، وليس هو في البخاري ، كما أشار إلى هذا وذاك ابن تيمية والذهبي تشهيراً له بجهله في الحديث ، بل قال أبو شامة المقدسي الشافعي في « المؤمل » عند ذكره استدلال أهل مذهبه بالأحاديث الضعيفة ، وتصرفهم في الأحاديث نقصاً وزيادة : « وما أكثره في كتب أبي المعالي وصاحبه أبي حامد » وهما - كما ترى - مَضْرَبٌ مَثَل عند أبي شامة في الجهل بالحديث .

ويذكرنا هذا ما قاله ابن الجويني حينما غلبه غلبة فخر الإسلام البزدوي في مناظرة : « إن المعاني قد تيسرت لأصحاب أبي حنيفة لكن لا ممارسة لهم بالحديث » . يعني كأن له شأناً في الحديث وإن أصبح مغلوباً في النظر وهذا ما يتسلى به المفلسون .

فإذا كان حال ابن الجويني والغزالي هكذا ، فماذا يكون حال الفخر الرازي في ذلك ؟، فلا يكون هؤلاء من رجال هذا الميدان - كما سيظهر

ذلك بأجلى من هذا في مناقشاتنا معه ـ ولسنا ننكر أن لإمام الحرمين فضلاً جسيماً في مؤلفاته في علم أصول الدين . وهو إمام من أئمة هذا العلم ، ومع ذلك له وهلة فظعية أتعبت مدافعيه في الجواب عنها ، وهي مسألة علم الله بالمحدثات المتجددة . وصيغته مما لا يصدر ممن يعرف الله سبحانه . وقد أطال التاج بن السبكي في الإجابة عنها بما لم يقتنع هو به فضلاً عن أن يقنع الآخرين ، وعلى كل حال هي غلطة خطرة نسأل الله الصون . وهذا أوان الشروع في الرد التفصيلي ومن الله سبحانه التوفيق والتسديد .

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

قال ابن الجويني في مفتتح كتابه :

(الحمد لله الذي خص من شاء من الأنام بإعلام الأدلة والأعلام ، ووفقهم لمعرفة قواعد الأحكام ، وسهل لهم سبيل الأدلة على تفاصيل الحلال والحرام ، ثم اختار من علماء الدين وفقهاء اليقين من هو خير أحبار الأمة وسيد كبار الأئمة أبا عبد الله محمد بن إدريس ... الشافعي رضى الله عنه ، وجعل مذهبه أحسن المذاهب ومطلبه أقصد المطالب بشهادة سيد المرسلين ، وخاتم النبين محمد المصطفى ﷺ ، وعلى آله وصحبه أجمعين بقوله : « الأئمة من قريش » وبقوله : « قدّموا قريشاً ولا تقدموها ») .

أقول : الموصول في صدر الكلام مع صلاته المتعاطفة يدل على المحمود عليه ، فالواجب على الحامد في مثل هذا الموضع أن لا يذكر إلا ما هو مجزوم به ، وإلا يكون غير حامد له تعالى . والذي اختار الشافعي هو المؤلف ، ولا دليل على أن الله تعالى اختاره فيكون هذا رجماً بالغيب .

ثم قوله : (من هو خير أحبار الأمة وسيد كبار الأئمة) ما هو إلا مجازفة إن كان يريد الاستغراق الحقيقي ، ويأبى السياق أن يكون الاستغراق عرفياً على أن يكون خير أحبار الأمة وسيد كبار الأئمة من أهل طبقته فقط .

ثم قوله (وجعل مذهبه أحسن المذاهب) إن كان يريد به أن الله جعل مذهب الشافعي أحسن المذاهب في نظر المؤلف ، فلا يجدي ذلك نفعاً فيما يحاوله . وإن كان يريد أنه تعالى جعله أحسن المذاهب في نفس الأمر ، فلا يكون هذا إلا قولاً بالتشهي بدون دليل .

وقوله : (بشهادة سيد المرسلين ... بقوله الأئمة من قريش ، وبقوله

قدموا قريشاً ولا تقدموها) تقويل وإشهاد لسيد المرسلين بما لم يشهد به نصاً ، وتحريف للكلم عن مواضعه ؛ لأن المعروف في عهد النبي صلوات الله عليه من معنى الإمام هو القدوة مطلقاً أو الخليفة أو الإمام في الصلاة ، واستعماله في القدوة في المسائل الظنية الاجتهادية فقط اصطلاح محدث لا يسوغ حمل لفظ الرسول عليه السلام على ذلك المعنى المستحدث ، ولو جاز ذلك لفسد المعنى على تقديريْ حمله على المعنى الأعم أو المعنى الأخص ؛ لأنه لم يقل أحد أن إمامة غير القرشي في الصلاة غير جائزة ، ولا أن غير القرشي لا يكون قدوة في شيء مطلقاً . وأما إذا خص الإمام في الحديث بالمعنى المستحدث ، فيكون في هذا الرأي إبطال إمامة كل إمام سوى الشافعي ؛ لأن مالكاً غير قرشي ، وكذا أبو حنيفة وأبو يوسف ومحمد بن الحسن وأحمد ابن حنبل وأبو ثور والمزني وداود وابن جرير وابن حزم وغيرهم ، لأنهم ليسوا من قريش ، بل الشافعي أيضاً ليس بقرشي في بعض الروايات [1]

(١) ومن دأب أهل العلم أن لا يفتخروا بأنسابهم ذاكرين قوله تعالى : ﴿ فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ﴾ وأن لا يناقشوا الناس في أنسابهم اتهاناً لهم عليها ما لم يحاولوا جرّ مغنم بها ، فإذ ذاك يطالبونهم بحجة شرعية تثبت نسبهم ، والنسب ليس بمكتسب والمرء إنما يوجه إليه المدح أو القدح بما كسبت يمينه ، ولم نر أحداً قبل زكريا الساجي رفع نسب شافع إلى عبد مناف ، والساجي ممن تكلم فيهم الناس كما ذكره الجصاص وابن القطان ، وقد توارد الناس على سوق هذا النسب ، إلا أن اختلاف الروايات في مسقط رأس الإمام الشافعي رحمه الله هل هو غزة أم عسقلان أم الرملة أم اليمن ؟ وعدم ذكر ترجمة لوالديه ولا تاريخ لوفاتها في كتب الثقات مما يدعو إلى التثبت في الأمر ، وحديث الشافعي في مجلس الرشيد مما لا يعول عليه لما في السند والمتن من الاضطراب والمآخذ ، وعد شافع صحابياً أول من ذكره هو أبو الطيب الطبري ـ صديق أبي العلاء المعري ـ بدون سند ، وفي رواية إياس بن معاوية عند الحاكم ذكر ابن للسائب غير مسمى فجعله بعضهم شافعاً ، وأول من عد السائب صحابياً من مسلمة بدر هو الخطيب في تاريخه بدون سند ، ولم يذكرهما ابن عبد البر في الاستيعاب في عداد الصحابة ، وربما يعذرنا إخواننا الشافعية إذا ترونا في قبول ما سطره أمثال الساجي والحاكم وأبي الطيب والبيهقي والخطيب لما بلونا في رواياتهم من المآخذ ورواية الحاكم عن أحمد بن سلمة ليس سندها بذاك القوي . والأكثرون =

عند مسعود بن شبية وغيره ، فظهر أن تمسك المصنف بالحديث المذكور فيما يحاول أن يستدل به عليه باطل مردود . ثم لو سألناه عن الحجة في صحة الحديثين لضاقت عليه الأرض بما رحبت بالنظر إلى حالته في معرفة الحديث ، وسيأتي الكلام في الحديثين إن شاء الله تعالى .

وقال في (ص ١٤) :

(يجب على العامي حتماً أن يعين مذهباً من هذه المذاهب ، إما مذهب الشافعي رضي الله عنه ، في جميع الوقائع والفروع ، وإما مذهب مالك ، أو مذهب أبي حنيفة أو غيرهم رضوان الله عليهم ، وليس له أن ينتحل مذهب الشافعي في بعض ما يهواه ومذهب أبي حنيفة في باقي ما يرضاه) .

أقول : هذا اعتراف منه بإمامة الأئمة المتبوعين ، وهو ينافي القصر المستفاد من حديث « الأئمة من قريش » على ما يريد أن يفهمه ابن الجويني من لفظ « الإمام » كما يناقض قوله (ص ١٦) : (يجب على كافة

= على أنه قرشي بدون تعرض لكونه صليباً أو غير صليب فيهم ، قال فخر الدين الرازي في « مناقب الشافعي » رضي الله عنه (ص ٥) : « وطعن الجرجاني في هذا النسب وقال إن أصحاب مالك لا يسلمون أن نسب الشافعي رضي الله عنه من قريش بل يزعمون أن شافعاً كان مولى لأبي لهب ، فطلب من عمر أن يجعله من موالي قريش فامتنع فطلب من عثمان ذلك ففعل اهـ » . ثم أوسعه سبّاً وشتماً ، والجرجاني هذا هو : أبو عبد الله محمد بن يحيى بن مهدي الجرجاني صاحب المؤلفات الممتعة وله ترجمة عند ابن الجوزي في المنتظم وبه تخرج الإمام أبو الحسين القدوري . وينقل منه كثيراً ابن الصباغ الشافعي في الشامل بل تراه يتابعه في بعض آرائه . وهو معروف في بيئات العلم بالورع والسعة في العلم ومثله لا يقابل بالسب ، ولو علم الرازي منزلته في العلم والورع لسلك في الرد عليه منهجاً آخر على أنه يقول : « يزعمون » وهذا يدل على أنه غير جازم بما يقولون ، فكيف يستبيح الرازي سبّه وشتمه ؟ وبعد اللتيا والتي ليس التعويل في باب الاجتهاد على النسب بل على العلم والورع قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ وقال صلّى الله عليه وسلم : « من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه » أخرجه مسلم ، ولا يزال عهد المصطفى إلى أمته صلوات الله وسلامه عليه في حجة الوداع يرن في الأسماع لمن ألقى السمع وهو شهيد .